حكم "إسرائيل" على الفلسطينيين خلق يهودية جديدة

ترجمة وتحرير: نون بوست

هل يمكن أن توجد اليهودية دون مواطنين يهود؟ هل يوجد في مكان ما كيان يسمى "اليهودية" منفصل عن اليهود زمانيا ومكانيا؟ هذا السؤال لا يتعلق بمصدر سلطة اليهودية، أو بعبارة أخرى، فإنه لا يتطرق إلى مسألة من سمح للناس بإنشاء هذا الكيان – سواء كان الله، كما يؤكد التقليد، أو مبادرة اجتماعية إنسانية، كما يقول نقد الكتاب المقدس. السؤال الذي أطرحه هنا يتناول وضعًا معينًا توجد فيه اليهودية بالفعل. من أنشأها إذا لم يفعل البشر ذلك؟ وهل يمكن أن توجد دون يهود، منفصلة عن تجربة اجتماعية ملموسة؟

أريد أن أجادل بأن ذلك لا يمكن أن يحدث، فالحقيقة هي أن اليهودية كما عرفناها منذ 2000 سنة هي اليهودية ما بعد الهيكل، وهي اليهودية التي جددها الحكماء عند تدمير الهيكل الثاني في القدس سنة 70، وفشل ثورة بار كوخبا في 132-136م.

لقد أثار الحكماء فعليًا ثورة كاملة في اليهودية؛ غيروا أساليب العبادة والتجربة الدينية والعلاقة مع الله. وحلت الصلاة والدراسة المكثفة للكتاب المقدس محل الذبائح الحيوانية. وغيرت الثورة الحاخامية أيضًا التقسيم الطبقي الاجتماعي للشعب اليهودي، وحل قادتها محل الكهنة واللاويين كنخبة اجتماعية ودينية.

ونتيجة لذلك؛ خضع المسار الذي يدخل من خلاله المرء إلى النخبة في المجتمع لتحول جذري، ولم يعد الأمر يعتمد على الأصول البيولوجية للفرد – كونه وُلد لأب من قبيلة لاوي – بل كان يعتمد على أفعال الفرد الفكرية والدينية وشخصيته.

وأيضًا؛ أدت الظروف التاريخية في ذلك الوقت إلى اللامركزية الجغرافية والسياسية، وظلت القدس مجرد نقطة محورية رمزية لليهودية، ولم تعد السلطة الدينية متمركزة في مكان واحد أو في مؤسسة هرمية للكهنة، كما كان الحال في الماضي. وبعد سنة 70 م؛ لم يكن لليهود كنيسة ولا بابا كما في السابق، وحتى بعد تلك الحقبة، لم يكن هناك نموذج واحد للسلطة. وإلى جانب عالم التوراة؛ كان هناك آدمور (زعيم روحي حسيدي)، وصوفي، وواعظ شعبي، ودايان (قاضي ديني) والأستاذ.

إذا كان وجه اليهودية يعكس وضع اليهود، وإذا شكّل اليهود اليهودية وفقًا لظروف الزمان والمكان؛ فإن ما يفعله اليهود في دولة "إسرائيل" ذات السيادة هو أيضًا تشكيل اليهودية. وتنطوي السيادة على ممارسة الحكم الفعلي على إقليم ما وعلى السكان، لذلك يتوجب علينا أن نفكر في كيفية تغيير حكم منطقة ما وسكانها لليهودية. وبشكل رئيسي؛ كيف أدى حكم السكان غير اليهود – الفلسطينيين في حالتنا – إلى ظهور يهودية جديدة.

أشارت المسيانية اليهودية ضمنًا إلى إنشاء نظام عالمي جديد؛ يدرك فيه اليهود علانية تفوقهم الروحي والسياسي على الشعوب الأخرى

لا توجد سابقة في التاريخ اليهودي لوجود دولة يهودية تشكل قوة إقليمية وتحكم شعبًا آخر/ ولم يسبق للشعب اليهودي أن امتلك مزيجًا مثل هذا من السيادة والسلطة والسيطرة، والذي يتم استغلاله لقمع شعب آخر. لم تكن مملكة الحشمونائيم (140 -63 قبل الميلاد) قوة إقليمية. وقد حوّل حاكم الحشمونائيم كبير الكهنة يوحنا هيركانوس الأول سكان مملكة إدوم إلى اليهودية عام 125 قبل الميلاد بعد غزوهم. ولكن التحول الجماعي للفلسطينيين إلى اليهودية لم يكن مطروحًا على جدول الأعمال، وكان من المفترض أن يظلوا خارج الجماعة اليهودية.

لقد كان الشعب اليهودي يركز دائمًا على الإثنية، حيث تؤمن اليهودية بسيادة جماعتها العرقية على الأمم الأخرى، وهذا تصور هرمي صارخ، والذي يفيد بأن اليهودي متفوق على غير اليهودي. ولكن على مر التاريخ؛ كانت هذه السيادة تفتقر إلى قوة الدولة وجهاز لممارسة السيطرة على غير اليهود. في المقابل؛ كان اليهود أقل شأنًا في النظام الاجتماعي والديني الذي أسسته الإمبراطوريات والدول التي حكمتهم على مدى ألفي سنة.

على النقيض من ذلك؛ تتوافق الكتابات والسلوك اليهودي داخليًا مع التصور الذاتي لكونك الشعب المختار، ففي القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، أوضح موسى بن ميمون أن هذا كان يستند إلى ما اعتبره اليهود تفوقًا للتوراة ودينهم وأسلوب عيشهم، بينما اعتقد الحاخام يهوذا اللاوي من ناحية أخرى أن الجماعة تمتلك سيادة وجودية وبيولوجي على الشعوب الأخرى. وفي أواخر القرن الثامن عشر؛ كتب الحاخام شنور زلمان، مؤسس سلالة حاباد الحسيدية، في "تانيا" عن تفوق الروح اليهودية على الروح الدنيا لبقية البشرية.

واستنادًا إلى مفاهيم السيادة هذه؛ أشارت المسيانية اليهودية ضمنًا إلى إنشاء نظام عالمي جديد؛ يدرك

فيه اليهود علانية تفوقهم الروحي والسياسي على الشعوب الأخرى، وكان هناك توقع بأن المسيحية ستخلق واقعًا جديدًا وسيقوده سليل الملك داود، فيما ينص التقليد اليهودي على أن الله سيؤسس هذا النظام الجديد في وقت ما في المستقبل. من جانبهم؛ نقل حاخامات السلالة الحسيدية فكرة النظام الجديد من واقع تاريخي مرغوب فيه إلى شكل من أشكال الوعي العقلي، وكانت النتيجة ظهور روحانية ملموسة للمسيانية، منفصلة عن الواقع التاريخي.

ولم يكن الانتشار الواسع لمثل هذه المقاربات بين اليهود في المنفى مسألة لاهوتية فحسب؛ بل كان أيضًا رد فعل مضاد للموقف الذي اتخذته المجتمعات والأديان التي تعيش في كنفها المجتمعات اليهودية. لقد كانت مكانة اليهود متدنية سلفا، وفي الواقع؛ تأثر اليهود بكل الثقافات المحيطة بهم، وارتقى بعض أفرادهم إلى مناصب عليا في المؤسسات السياسية والمالية في بلدانهم، لكن طالما أنهم لم يعتنقوا الدين السائد في بلدانهم، فقد كانوا "غرباء"، وشعب متدنٍ، وفي بعض الحالات، أُجبروا على العيش في مكان محدد يُطلق عليه المَعزل، نطاق الاستيطان وما إلى ذلك. لقد كان تصورهم بأنهم مختارون وأشخاص متفوقون سيحين وقتهم بمثابة تعويض عن محنتهم.

مستعمرة عبر السياج

خلق التحرر والحداثة واندماج اليهود في الحياة المعاصرة مفهومًا جديدًا لما يسمى بالشعب المختار، وتُرجم هذا المفهوم إلى مهمة تعليمية شاملة، بدلاً من الإشارة إلى التفوق المنعزل للأرثوذكسية. وبدلًا من نموذج معزول من اليهودية، سلبي في مواجهة البيئة الاجتماعية المحيطة، اقترح هيرمان كوهين (1842-1918) وفرانز روزنزويج (1886-1929)، وإلى حد ما أيضًا الحاخام سامسون رافائيل هيرش (1808-1888)، يهودية منفتحة وعالمية ومتساوية – مسيانية بدون ملك يهودي مسياني – ودون أرض وحكم على شعوب أخرى.

ووفقًا لهؤلاء العلماء؛ كان هدف الشعب اليهودي هو توسيع الحدود الأيديولوجية لدينهم لتشمل

البشرية جمعاء، وكانت هذه يهودية المضمون، وليست يهودية الأسلحة أو القوة. واستنادًا إلى تجارب الحرب العالمية الأولى؛ دعا الحاخام آرون صموئيل تاماريس (1869-1931) إلى القومية اليهودية التي لا تقوم على إنشاء دولة في حد ذاتها، بل على أساس قومية ذات طبيعة روحية ومدنية في الغالب، وتبنى مخلوف أفيتان (1908-1960) أفكارًا مماثلة في سنة 1945 في الدار البيضاء

تطورت هذه المقاربات في وقت كانت فيه غالبية المجتمعات التي يقيم فيها اليهود إمبريالية واستعمارية وتبشيرية بطبيعتها؛ حيث تولّد الإمبريالية تطوير آليات السيطرة على المناطق والمجتمعات عبر الحدود وفي الخارج، ويضيف الاستعمار إلى ذلك عنصر الاستيطان في مثل هذه المناطق، وذلك بهدف إدامة السيطرة على الموارد الأرضية وعلى عمل السكان الأصليين، واستغلالها لصالح دولة الاحتلال. وتولد الإمبريالية والاستعمار علاقات قوة يتمتع فيها الأجنبي والمُحتل والمستوطن بأفضلية على السكان المحليين، رغم أن عدد الموجودين في السلطة أقل بكثير منهم.

كان المستوطنون الغربيون المستعمرون مصحوبين بمبشرين سعوا إلى تغيير ديانة وثقافة السكان الأصليين؛ حيث إن هدف تحضر الآخرين الذي قام به المبشر – ومن يسمى بالمستوطن المستنير أيضًا – قد قلص المسافات الدينية والثقافية بين المحتلين والسكان الأصليين. وكان المحتلون يتعلمون لغة السكان المحليين، ويقعون في حب نسائهم، ويتزوجون وينشئون معهم عائلات، وعادةً ما يقلل الوقت والمسافة من روابط المحتلين المستوطنين بوطنهم ويزيد من سعيهم وراء المصالح المحلية على حساب المجتمع في المدينة البعيدة التي جاؤوا منها.

اندمج اليهود بفخر في المؤسسات الإمبريالية والاستعمارية لحوالي 300 سنة، حتى القرن العشرين، فلقد عملوا كوزراء وممولين ومستوطنين في المستعمرات وأرباب عمل للعبيد. من جانبها؛ كانت المربية إيما مردخاي (1812-1906)، التي كانت ملتزمة دينيا ونشطة في المجتمع اليهودي في ريتشموند بولاية فيرجينيا، مالكة للعبيد ودعمت الكونفدرالية علنًا في الحرب الأهلية الأمريكية. وخلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، استخدمت عائلة غاباي في جامايكا مئات العبيد السود في مزارع السكر الكبيرة التي كانت تمتلكها في جميع أنحاء منطقة البحر الكاريبي.

أدى التقارب الجغرافي بين "إسرائيل" ذات السيادة والمدينة ومستعمراتها إلى خلق ظروف ملائمة لاستثمارات ضخمة من قبل الدولة والقطاع الخاص في مشروع الاستيطان، وهو أكبر وأغلى مشروع تقوم به "إسرائيل" منذ إنشائها، وقد أصبحت "إسرائيل" خاضعة له.

وكان إدوين مونتاغو (1879-1924) وزيرا للخارجية في الهند من سنة 1917 إلى سنة 1922، عندما كانت شبه القارة الهندية جوهرة تاج الإمبريالية البريطانية. وخدم ليون بلوم (1872-1950) ثلاث فترات في منصب رئيس وزراء فرنسا عندما حكمت تلك الدولة مساحات شاسعة من إفريقيا. وكانت يهودية هذه الشخصيات جزءًا من هويتهم الشخصية، ولم تكن جزءًا من المشروع الاستعماري والتبشيري في حد ذاته.

في المقابل كانت فكرة المهمة العالمية أيضًا استجابة يهودية لروح العصر: فقد تضمنت نوعًا من العمل التبشيري دون مهمة دينية محددة ودون كنيسة، والتوسع الثقافي بدلاً من الحكم الاستعماري، وإنشاء علاقات بين السلطة والنفوذ تجاه الشعوب الأصلية.

فرضت الصهيونية وإقامة الدولة اليهودية إطارًا ونظامًا إقليميًا على المفهوم الحديث للشعب المختار، وقد طالب دافيد بن غوريون بأن تكون دولة "إسرائيل" منارة للأمم، وتحدثت الحركة العمالية عن خلق مجتمع نموذجي متكافئ. وبطبيعة الحال؛ كانت هناك فجوة دائمًا بين التصور الذاتي لليهود وسلوكهم، كما لوحظ مثلًا خلال حقبة الاستعمار الغربي، وفي المجتمع الاشتراكي للكتلة السوفييتية، وفي الولايات المتحدة. ولكن هذا الوعي موجود إلى جانب الطموح ليكون الأفضل وأن يشكل نموذجًا للعالم

المستنير، ثم جاءت حرب الأيام الستة والاحتلال والاستيطان.

في الواقع؛ لم تبدأ السيطرة على الفلسطينيين في سنة 1967، فلم يكن من الممكن أن تقوم دولة ذات سيادة وأغلبية يهودية كبيرة لولا التطهير العرقي الذي تم في حرب سنة 1948 وما تلاها. وفي ذلك الوقت؛ بدأ شكل جديد من اليهودية بالفعل في التبلور شكلًا ومضمونًا، وقد تسارعت هذه العملية بعد سنة 1967 مع إنشاء المستوطنات. وفي الكتب المدرسية؛ حلت كتب يشوع والقضاة والملوك محل كتب الأنبياء الذين بشروا بالعدالة الاجتماعية والنظام الأخلاقي؛ إشعياء وإرميا وعاموس

في البداية كانت المستوطنات ظاهرة شبه برية زرعتها الحكومات العمالية، ولقد غضت المؤسسة الحاكمة الطرف، فيما ضمنت بقاء تعاونها مع المستوطنين تحت الرادار. وفتح زعماء الليكود منذ سنة 1977 بسعادة أبواب الحكومة أمام جماعات المستوطنين. وفي الواقع؛ تجذّر المشروع الذي ولّدته تلك الجماعات كعمل من أعمال الدولة، وعلى عكس الاستعمار الغربي، تم تطبيق الاحتلال الإسرائيلي في ميادين الجيران، عبر الحدود.

وقد أدى التقارب الجغرافي بين "إسرائيل" ذات السيادة والمدينة ومستعمراتها إلى خلق ظروف ملائمة لاستثمارات ضخمة من قبل الدولة والقطاع الخاص في مشروع الاستيطان، وهو أكبر وأغلى مشروع تقوم به "إسرائيل" منذ إنشائها، وقد أصبحت "إسرائيل" خاضعة له.

وأدى القرب الجغرافي إلى ظهور مستوطنين دون مستوطنات؛ أي أفراد الأسرة والأصدقاء ومؤيدي أيديولوجيتهم وسياساتهم الذين لا يشاركون بشكل مباشر في الاحتلال الفعلي للأراضي الفلسطينية. ولا يزال هؤلاء الأفراد الآخرون يقيمون داخل إسرائيل. وعلى عكس المُحتلين الكلاسيكيين؛ خلق غالبية المستوطنين لأنفسهم واقعًا هجينًا مرتبطًا ببلدهم الأصلي، وليس السكان الأصليين. إنهم يعتمدون على دولتهم ماليًا ومؤسسيًا، ويعبُر العديد منهم الحدود الوهمية بين الضفة الغربية المحتلة وإسرائيل ذات السيادة، ويعودون مرة أخرى كل يوم. إنهم يحافظون على عزلتهم العرقية عن السكان

الفلسطينيين الأصليين ولا يتزاوجون أو يقيمون علاقات عاطفية مع نسائهم، كما كان الحال مع المستعمرين في القرون الماضية، في أماكن أخرى من العالم.

إضافة إلى ذلك؛ فإن المجالس والبلديات المحلية للمستوطنين منفصلة من جميع النواحي عن مجالس "جيرانهم"، ولا يطمح المستوطنون إلى إعادة تشكيل ثقافة الفلسطينيين أو تحويلهم إلى إسرائيليين. ومثل العديد من الإسرائيليين الذين يعيشون غرب الخط الأخضر – الحدود المعترف بها دوليًا بين "إسرائيل" والأراضي المحتلة – فإنهم يريدون السيطرة على معظم أجزاء الضفة الغربية والقضاء على الهوية المنفصلة والتطلعات الوطنية للفلسطينيين.

في القرن الحادي والعشرين؛ أدى توسع المستوطنات وتحول السلطة الفلسطينية إلى مقاول فرعي لإسرائيل إلى وجود نظام واحد بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط، فالمستوطنات لا تُبنى "هناك" على مسافة بعيدة، بل هي "هنا"، وهذا، في الواقع، هو نظام السيادة اليهودية، فعدد اليهود الذين يعيشون في ظل هذا النظام يساوي تقريبًا أو أقل قليلاً من عدد الفلسطينيين. لذلك؛ لا جدوى من الاستمرار في إخفاء التفوق العرقي الذي يشعر به هؤلاء اليهود وراء شعار "الأغلبية الديمقراطية" في دولة يهودية. وبفضل قانون الدولة القومية لعام 2018، وفي الواقع؛ يمكن للمرء أن يفتخر بالتفوق اليهودي وبالحصرية الوطنية. كما لا توجد حاجة إلى "بند الحفيد" في قانون العودة لعام 1950 – الذي يسمح لأي شخص لديه جد يهودي بأن يصبح مواطنًا إسرائيليًا والذي كان إعلانًا مهمًا ضد النازية – من أجل خلق أغلبية يهودية مصطنعة، حتى أن الاتفاقات الائتلافية الأخيرة تطمح إلى شطب هذه السياسة.

التفوق اليهودي هو أيضا الرد على التحدي الذي يشكله الفلسطينيون من مواطني إسرائيل؛ حيث إن اندماجهم المتزايد في المجال العام الذي يسيطر عليه اليهود وسوق العمل، حتى مع التأكيد على هويتهم الفلسطينية الأصلية، وتعاونهم مع منظمات المجتمع المدني اليهودية، أدى إلى ظهور واقع هجين بالنسبة لهم أيضًا، فهذا تهجين عرقي – مدني. وعلى الرغم من التمييز ضد هؤلاء الفلسطينيين، إلا أن جنسيتهم آمنة وبالتالي فهي تهدد الأسس العرقية للنظام.

ويوجد في القدس واقع هجين جغرافي وعرقي، فـ40 في المائة من سكان المدينة ليسوا يهودًا ولا هم مواطنون في إسرائيل، ولكن على عكس الفلسطينيين في الضفة الغربية، يتمتع نظراؤهم في القدس بإقامة دائمة، وقد دفع دورهم البارز في سوق العمل وفي مؤسسات التعليم العالي الإسرائيلية من ناحية، وإقامة المستوطنات في الأحياء الفلسطينية في القدس من ناحية أخرى؛ لتأكيد "إسرائيل" القاطع أن القدس مدينة يهودية، ولكنها في الواقع ثنائية القومية.

الحوكمة والثورة

إن السيادة والسلطة والحكم على الفلسطينيين غيرت اليهودية، فلم تتشكل هذه اليهودية الجديدة في بيت مدراش كما كانت اليهودية الكلاسيكية، ولكن في إطار نظام إسرائيلي مهيمن بشكل عام ويحكم الفلسطينيين بشكل خاص. وتطورت المركزية العرقية من شكل من أشكال الوعي الذاتي إلى طريقة عمل، ومن مهمة عالمية إلى قمع احتلال، وتم تحويل النموذج الأخلاقي الذي طالب به بن غوريون والحركة العمالية إلى صادرات أسلحة ووسائل أخرى مختلفة للسيطرة ومساعدة الأنظمة الاستبدادية، لتمكينها من مراقبة خصومها.

وحتى عام 1967؛ كانت الصهيونية الدينية لا تزال تجر نفسها في أعقاب الصهيونية العلمانية أو التقليدية. وبطريقة مماثلة، أسست الكيبوتسات والقرى، ونقابات عملية؛ حركة شبابية وأيديولوجية مناهضة للأرثوذكس المتطرفين. بعد الحرب؛ سخرت الصهيونية الدينية نشاطها الصهيوني لحكم الأراضي والسكان الذين احتلتهم "إسرائيل" عام 1967. ومنذ اتفاقيات أوسلو؛ كان هذا النشاط يهدف إلى تغيير الوضع الراهن في الحرم القدسي وإقامة المستوطنات في قلب الفلسطينيين، ومناطق سكنية

في القدس والخليل وما يسمى بالمدن المختلطة في إسرائيل.

لقد تغير اليهود الأرثوذكس وفقًا لذلك، فلم يعد يتم التعامل مع جبل الهيكل كموقع ممنوع زيارته حتى تتهيأ الظروف لمجيء المسيح. على العكس من ذلك: يجب أيضًا بسط سيادة دولة "إسرائيل" هناك، حتى أن المجموعات التي تسعى لإعادة بناء الهيكل تذهب لأبعد من ذلك؛ فهم يسعون إلى تحويل اليهودية من دين ما بعد الهيكل إلى إيمان ما قبل الهيكل. وبالنسبة لهم؛ فإن سيادة شعب مثل جميع الشعوب الأخرى ليست يهودية.

بين المنتسبين إلى حاباد (طائفة دينية يهودية)، تتشابك السيادة والحكم على الفلسطينيين مع السيادة العرقية اليهودية، وفقًا لتعاليم مؤسس الطائفة الحسيدية والمسيانية الراحل ربى موسى بن نحمان.

لقد مرت المسيحية اليهودية (المسيانية) بتحول؛ حيث صور الأدب اليهودي الكلاسيكي ظهور عصر المسيح بعد كارثة أو أزمة كبيرة، وآلام ولادة المسيح، وحرب يأجوج ومأجوج، وكل هذه العناصر هي جزء من الانتقال المسياني من عالم التاريخ إلى عالم يتجاوز التاريخ. في المقابل؛ فإن المسيحية اليهودية الجديدة هي نتاج نجاح تاريخي، وتحقيق السيادة اليهودية وممارسة السلطة على محيط غير يهودي. ورأى الحاخام إبراهيم إسحاق كوك في الصهيونية اختراقًا للدخول في مجيء المسيح، بينما يعتقد ابنه تسفي يهودا كوك وتلاميذه أننا وصلنا بالفعل إلى تلك المرحلة، وهم يعتقدون أن علمانية الصهيونية ليست سوى ذريعة، ومن الناحية العملية؛ فإنه يساعد على إدراك المسيحية اليهودية. في حين أنه ليس شكلاً شخصيًا للمسيانية – فالمسيح ليس إنسانًا – إلا أنه يحدث في وقت حقق فيه اليهود حكمًا وسيادة على الأرض. وتم تعزيز طريقة التفكير هذه منذ حرب الأيام الستة.

سمة أخرى لهذا الشكل من المسيانية هي الحتمية أحادية الاتجاه؛ حيث تنكر الحتمية المسيانية أي فشل محتمل مسبق، وتوفر حافزًا لدفع العملية إلى الأمام، وتشكل هذه الحتمية نوعًا من بوليصة التأمين الإلهية التي تحت رعايتها تكثف السيادة والحكم اليهوديين على الفلسطينيين. هذا الوضع يهدئ المؤمنين بالمسيانية الجديدة، الذين يشعرون بخيبة أمل لأن اليهود العلمانيين قد رفضوا الأرثوذكسية على الرغم من جهودهم المتعددة لجعل هؤلاء السكان "يتوبون".

بالتزامن مع هذه التيارات، طوّر الحاخام مائير كهانا مقاربة عنصرية قائمة على السلطة تجاه غير اليهود بشكل عام والفلسطينيين بشكل خاص. بالنسبة له وأتباعه؛ كانت السيادة اليهودية تعني قبل كل شيء استخدام القوة والعنف من قبل اليهود ضد غير اليهود. في الواقع؛ أدى نقل نشاطه من نيويورك إلى "إسرائيل" إلى ترسيخ الجمع بين استخدام القوة وتأكيد السيادة اليهودية، وجعل الفلسطينيين هدفًا مطلوبًا بشكل خاص، لا سيما في الخليل، حيث يتمتع أنصار كاهانا بقاعدة صلبة.

وبين المنتسبين إلى حاباد (طائفة دينية يهودية)، تتشابك السيادة والحكم على الفلسطينيين مع السيادة العرقية اليهودية، وفقًا لتعاليم مؤسس الطائفة الحسيدية والمسيانية الراحل ربى موسى بن نحمان.

أشعل مزيج سام من كل هذه الظواهر النيران التي التهمت المنازل في بلدة حوارة الفلسطينية الشهر الماضي، وأعاد المستوطنين وأتباع حاباد إلى هناك بعد أسبوع للاحتفال بعيد البوريم مع الجنود، بالقرب من حطام المنازل والسيارات المحترق.

في السنوات الأخيرة؛ انضم إلى هؤلاء الأشخاص الأرثوذكس المتطرفون من الأشكناز والسفارديم على حد سواء. وأدت النجاحات التاريخية لدولة إسرائيل، واندماج الحريديم في الحكومة والمجتمع الإسرائيلي وحركة المستوطنين إلى تآكل مكانة الأرثوذكسية الكلاسيكية غير الصهيونية. وتعزز هذه النزعة السمات الأصولية والليبرالية لليهودية الجديدة. وتظهر استطلاعات الرأي العام ارتباطًا ثابتًا خلال السنوات الأخيرة بين مستوى التدين والموقف المتشدد والعنصرية، وليس من قبيل المصادفة أن التصريحات الأكثر صرامة التي تروي هذا الشكل الجديد من اليهودية قد رددها حاخامات ينتمون إلى مثل هذه الدوائر، فهم يتخلصون من أي طلاء معياري ظاهريًا لهذا الخطاب.

لم يعد التفوق اليهودي شيئًا يحتاج المرء للخجل منه، بل على العكس، فالسيادة والحكم اليهودي ليسا مجرد وسيلة، مما يمكّن من التمسك بالتعاليم الدينية، بل أصبحت هدفًا في حد ذاته يخلق قاسمًا مشتركًا بين جميع التيارات الأرثوذكسية. ومثلما يصعب اليوم تخيل حاضر ومستقبل يهودي بدون دولة إسرائيل، كذلك من الصعب تخيل اليهودية بدون سيادة وتفوق يهودي وسيطرة على الفلسطينيين.

التحدي اليهودي اليوم، لاهوتيًا وعمليًا، هو إقامة السيادة اليهودية دون اضطهاد؛ حيث ستكون هذه سيادة يمكن وصفها بجدارة بأنها "يهودية".

اليهودية الجديدة لا تقترح إلغاء أو حتى إضافة الوصايا الموجودة؛ حيث إن المجتمعات الملتزمة التي ترى الخدمة العسكرية كواجب ديني تتعتبر هذا الأمر في نسختهم الحالية من الوصايا. وتقترح اليهودية الجديدة مجالًا عامًا جديدًا وهوية ووسائل للانتماء إلى جهاز السيادة والحكم. بالنسبة لمؤيدي اليهودية الجديدة، فإن إمكانية الحكم والإصلاح القضائي ليست فقط ممارسات تحررية تقدمها حكومة مركزية،

ولكنها مجموعة من القيم. وإلى جانب دعم "الأسرة المعيارية"، فإنهم يشكلون جزءًا من حزمة من المبادئ المحافظة التي حلت محل الديمقراطية الاجتماعية والليبرالية المعتدلة التي ميزت الأرثوذكسية الإسرائيلية ذات يوم.

قد يكون ربط الدين بالدولة قد حول الدين بالفعل إلى خادمة الدولة، كما جادل البروفيسور يشعياهو ليبوفيتز. ولكن حدث العكس أيضا؛ فلأن الجنسية الإسرائيلية تقوم على العرق، ولأنها مرتبطة بالدين، فلا يوجد فصل واضح في "إسرائيل" بين الدين والعرق والدولة. ولا يوجد مثل هذا العدد الكبير من الأفراد العلمانيين بالمعنى الكامل للكلمة؛ حيث يتمركز معظم اليهود في "إسرائيل" على طول الطيف بين الأرثوذكسية الجامدة والإلحاد. وعلى طول هذا الطيف الواسع؛ هناك مزيج – وبدرجات متفاوتة – من الممارسات الدينية، والتي تتعلق بشكل أساسي بطقوس المرور، والإيمان بالله، والتدين، والتقاليد العائلية، والوعي التاريخي والأساطير، ولهذا فالتصور الثنائي القائم على أن الدين والمتدينين مقابل العلمانيين لا يعكس الواقع الإسرائيلي بشكل صحيح.

ليس من قبيل المصادفة أن يكون الجيش الإسرائيلي والمؤسسة الأمنية في قلب اليهودية الجديدة، فهم يشكلون أدوات رئيسية للسيطرة على الأرض والسكان الفلسطينيين، ويدافعون عن السيادة اليهودية. علاوة على ذلك؛ فإن المجتمع الإسرائيلي هو مجتمع عسكري؛ حيث إن الجيش والأجهزة الأمنية ليسا فقط وسيلة ومكافآت مادية غير متكافئة، ولكنهما أيضًا هيبة ومكانة، إضافة إلى أن الجيش هو أداة التنشئة الاجتماعية والمواطنة، وتعتبر الخدمة العسكرية تذكرة دخول إلى المجتمع وإثباتًا للمواطنة الصالحة، كما يعتبره يعتبر الأشخاص الذين يُعتبرون غير يهود على أساس "هالاكا" (القانون الديني) والذين يخدمون في الجيش؛ قد دخلوا الدولة اليهودية وخضعوا لتحول اجتماعي إلى اليهودية. من ناحية أخرى، في نظر عامة الناس، تعتبر الخدمة العسكرية للحريديم شرطًا لتلقيهم كامل الحقوق. بالنسبة للصهيونية الدينية، الخدمة العسكرية هي وصية من الوصايا، وكل نشاط متعلق بالأمن له أهمية لاهوتية ومسيانية.

زحف أعمى

أشار الكاتب أ. ب. يهوشوا إلى حقيقة أن إطار دولة "إسرائيل" الجماعي يشكل نوعًا من اليهودية الجديدة لا وجود لها خارج الدولة اليهودية، على سبيل المثال؛ في الولايات المتحدة. وبالعودة إلى عام 2012، وصف يهوشوا هذا الشخص بأنه "يهودي كامل" (على عكس "اليهودي الجزئي" الذي يعيش في الشتات، وهو إعلان أثار ضجة بين اليهود الأمريكيين على وجه الخصوص).

وتساءل يهوشوا: "من هو اليهودي الكامل، أو بكلمة أخرى دقيقة – إسرائيلي؟"؛ "إنه يهودي يحكمه اليهود، ويدفع الضرائب لليهود، ويلتزم بالتضامن مع اليهود الآخرين، ويرسله اليهود للحرب، ويخلي اليهود من منازلهم، أو يذهب لحراسة المستوطنات التي يكرهها. باختصار؛ من يعيش في علاقة ملزمة مع يهود آخرين. على سبيل المثال، عند قيام دولة إسرائيل، دخل اليهودي الإسرائيلي في نظام تقشف من أجل دمج مئات الآلاف من اليهود الآخرين الذين اختاروا الصعود إلى أرض "إسرائيل" وتحويل يهوديتهم الجزئية إلى يهودية كاملة؛ في الأراضي اليهودية التاريخية وباللغة العبرية، وهي اللغة الأصلية التي توحد الشعب كله".

كما سأل يهوشوا: "هل نسير بعمى سياسي إلى دولة فصل عنصري، هل سيكون الاحتلال جزءًا دائمًا من هويتنا ... هل تستمر العنصرية والمذابح ضد العرب في ملاعب كرة القدم ... هل يدوس التعصب الديني على جوانب أكثر قيمة؟ الهوية الإسرائيلية؟".

بعد أكثر من عقد من الزمان، تم استبدال علامات الاستفهام هذه، جزئيًا على الأقل، بعلامات تعجب.

فالحكم على الآخرين ليس شيئًا يُؤثر خارج الدين بالمعنى الإسرائيلي؛ بل إنه جزء منه. وبالنسبة للأرثوذكس، هو عنصر جوهري في لاهوتهم ومسيانيتهم.

ويظهر تأثير اليهودية الجديدة خارج "إسرائيل" أيضًا، فهيحاضرة بشكل كبير في الأرثوذكسية اليهودية في الغرب، وبدرجة أقل أيضًا في التيارات الليبرالية والتقليدية، التي يتبنى أعضاؤها نسخًا مختزلة منها بفضل ارتباطهم بإسرائيل. ويمكن العثور على العلم الإسرائيلي في العديد من المعابد اليهودية بجانب العلم الأمريكي، وتميل أعضاء الطوائف الليبرالية إلى توحيد الصفوف مع إخوانهم وأخواتهم في "إسرائيل" هذه الأيام، في ضوء اعتداء اليمين العنصري على هويتهم اليهودية. في بعض الحالات؛ لا يكون هذا الاعتداء عنيفًا بطريقة لفظية فحسب، بل يؤدي أيضًا إلى خسائر في الأرواح.

إن دولة إسرائيل، والسيادة والحكم اليهودياز؛ كل ذلك يوفر ملاذًا في أوقات الشدة، فمن الصعب على اليهود في الغرب أن ينسحبوا من "إسرائيل" حتى لو كانت الدولة قد تعرضت لعملية شد الوجه بشكل جذري. إن علاقتهم العاطفية والرومانسية مع "إسرائيل" قوية وتستند إلى دعم السيادة اليهودية التي لا تقدم أي اعتذار عن القوة التي تمارسها، حتى لو كان العنف الإسرائيلي يتعارض مع قيمهم من وقت لآخر.

طالما أن القومية اليهودية مرتبطة باليهودية كدين تاريخي وشعب، فلا يمكن اعتبار المساواة والشراكة بين غير اليهود في السيادة مجرد ظاهرة علمانية تنطوي على تقسيم للسلطة والحكومة

يهتم اليهود التقدميون في الغرب الذين لا يستطيعون التماهي مع اليهودية الجديدة، ومن بينهم جيل الشباب، الذي تأثر وعيه بالفعل بالمحرقة النازية، بـ"تيكون أولام"؛ أو إصلاح العالم، فهم يعملون بنشاط لحماية حقوق الإنسان بشكل عام وحقوق الأقلية السوداء، في الولايات المتحدة على وجه الخصوص، وينتمون إلى المنظمات التي تتعامل مع تغير المناخ والقضايا البيئية وحقوق الحيوان؛ هذه نسخة معاصرة من رسالة اليهود العالمية، فهم يرفضون مفهوم السيادة والحكم اليهوديين اللذين يمثلان جوهر اليهودية الجديدة، وبدلاً من ذلك؛ يقترحون أطرًا تتجاوز العرقية لتحسين العالم واستخدام المنطق اليهودي لدعمهم.

يجب أن يقال إن اليهودية الجديدة – اليهودية الإسرائيلية – تحدد السيادة والحكم الذي يمارس باسمها، مع التفوق اليهودي والقمع. هذا ليس فقط تبريرًا للسيادة، بل هو أيضًا توجيه لتطبيق ممارسة معينة وتحمل مسؤولية تفعيل السيادة كأداة لإخضاع الفلسطينيين. التحدي اليهودي اليوم، لاهوتيًا وعمليًا، هو إقامة السيادة اليهودية دون اضطهاد. ستكون هذه سيادة يمكن وصفها بجدارة بأنها "يهودية"، وستترجم السيادة بدون اضطهاد إلى مساواة وشراكة كاملة بين غير اليهود في ممارسة تلك السيادة.

وطالما أن القومية اليهودية مرتبطة باليهودية كدين تاريخي وشعب، فلا يمكن اعتبار المساواة والشراكة بين غير اليهود في السيادة مجرد ظاهرة علمانية تنطوي على تقسيم للسلطة والحكومة. ويمكن للمرء بالطبع أن يجادل ضد حق تقرير المصير لدولة "إسرائيل" كدولة يهودية، والسعي إلى فصلها تمامًا عن اليهودية التاريخية ومن أيديولوجية وممارسة السيادة اليهودية. إن الفصل من هذا النوع سيخلق دولة إسرائيلية يتساوى فيها جميع المواطنين – خطوة بعيدة المدى فشلت في الماضي، في المجتمع وفي المحكمة العليا.

والاحتمال الآخر، الذي لم يتم تجربته بعد، هو إيجاد أساس لاهوتي وتاريخي يهودي لتقاسم السيادة مع غير اليهود. هذا التحدي ينتظر الآن معارضي السيادة اليهودية.

المصدر: صحيفة هآرتس الإسرائيلية

رابط المقال: https://www.noonpost.com/46928/